

## رفاق وأعداء:

العمال العرب واليهود في فلسطين، ١٩٠٦-١٩٤٨

موسى البديري\*

*Comrades and Enemies: Arab and Jewish Workers in Palestine 1906-1948*, by Zachary Lockman. Berkeley: University of California Press, 1996. 374 pages.

إن ظاهرة ما بعد الصهيونية هي في أوج ازدهارها لدى جيل جديد من المؤرخين وعلماء الاجتماع الإسرائيليّين. ومع أنها ربما بقيت هامشية في المجال الأكاديمي، فلا ريب أنها تركت بصماتها على الحوار العام الجاري في إسرائيل، وهي بلد فريد في استغراقه الذاتي وهواجسه الذاتية. ويعتبر بعض ناقدتها، أمثال أمنون روبنشتاين، ذلك دليلاً على أن "الصهيونية نجحت، والثورة فشلت" ("هآرتس"، ١٢ حزيران/يونيو ١٩٩٧). بينما رأى فيها مناصروها، أمثال إيلان بابه، أنها تفرض تحدياً أمام "التأريخ الصهيوني الجماعي"، المنبثق "من إطار مجتمع صهيوني" (*History and Memory, No 1, 1995, pp. 67, 85*). وهذا، طبعاً، حوار إسرائيلي داخلي صرف، وربما هو دليل على رشد إسرائيل، وعلى وجود مهيمن يتأكد في كلمات أرييه شافيط بامتلاك "ديمونة ويادفاشيم ومتحف الكارثة النازية" ("هآرتس"، ٣ نيسان/أبريل ١٩٩٧). من جهة أخرى، فإن الدارسين النقّاد، أمثال أمنون راز. كراكوتسكين وغرشون شافير وغابي بيتربيرغ، ينتقدون التأريخ الصهيوني لرفضه اعتبار الوجود والرواية الفلسطينيين جزءاً لا يتجزأ من الشكل الذي اتخذته صورة الأمة الإسرائيليّة. ومساعي لوكمان، في بعض جوانبها، لإنتاج ما يعتبره تاريخاً قائماً على العلاقات، هي محاولة لتقديم نوع جديد من الرواية التي تعتبر وجود العرب عنصراً أساسياً في بناء المشروع الصهيوني، وتعتبر اليبشوف [اليهود في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨] جزءاً لا يتجزأ من القصة، لا عنصراً هامشياً فيها. وعلى الرغم من نيّاته، فإن النتاج النهائي يشكّل سرداً تاريخياً آخر.

\* أستاذ العلوم السياسية، مركز الدراسات الإقليمية، جامعة القدس.

يعطي امتيازاً لتاريخ اليبشوف ورؤاه. وباستناده شبه الكلي إلى ما يصفه لوكمان بالفكر والممارسة الصهيونيين اليساريين، فإن النتيجة النهائية لا تقل عن إعادة تأهيل ما بعد حداثية، إذا لم تكن حصيلة الجهد الاستعماري نفسه، فهي من صنع الرجال المستعمرين، باعتبارهم الأبطال المأساويين لهذا الجهد.

ويتركز نص لوكمان المطول والتفصيلي على استكشاف لفكر وممارسة الجناح اليساري للحركة الصهيونية، وتلاعبه بشريحة صغيرة من قسم ضئيل من أهالي فلسطين، هي شريحة العمال العرب تحديداً. وبلوغ ذلك، فإنه يعيد بناء تاريخ مجموعة محددة واحدة من العرب واليهود في فلسطين: عمال سكة الحديد. وفيما يلي بعض الأرقام ذات الصلة، كي ندرك جيداً الوزن النسبي لهذه المجموعة بين السكان. ففي سنة ١٩٢٤، بلغ عدد عمال سكة الحديد نحو ٢٤٠٠ عامل، أكثرهم الساحقة من العرب. وفي سنة ١٩٢٦، كان هناك ٤٠٥ عمال يهود، من مجموع ٣١٨٢ عاملاً في سكة الحديد. أما في سنة ١٩٣٥، فقد استخدمت سكة الحديد ٣١٧١ عاملاً عربياً، و٣٤٥ عاملاً يهودياً على التوالي. وفي الوقت نفسه، شكّل السكان اليهود في البلد ٢٧٪ من مجموع السكان. وفي ميناء حيفا، وهو مكان عمل مختلط آخر، أثار اهتمام لوكمان عمل نحو دزنتين من اليهود، في مقابل نحو ٤٥٠ عاملاً عربياً. وفي الأربعينات، حين أقامت السلطات البريطانية معسكرات للعمل، استخدمت تلك المعسكرات أكثر من ٣٠.٠٠٠ عامل، بينهم ٢٢.٠٠٠ عامل عربي و٩٠٠٠ عامل يهودي. ويتضح فوراً من هذه الأرقام أمران: أولاً، إن الأكثرية الساحقة من المجموعة المستهدفة عرب؛ ثانياً، إن الأعداد في قيد البحث صغيرة جداً. ومن المهم اخذ هذين الاعتبارين في الحسبان لسببين: أولهما أن محور رواية لوكمان يقوم كلياً على المناقشات والحوارات بين العمال اليهود، وثانيهما أن ما يقدمه النص لنا ليس عرضاً لبدايات طبقة منظمة من العمال العرب، ولا ولادة نقابات عربية ويهودية مختلطة. ولم يكن التركيز أيضاً على تلك الحفنة من العمال العرب، الذي جرى تنظيمهم لفترة قصيرة ضمن إطار الهيكليات المنفصلة، التي أنشأتها الهستدروت، وهي نفسها ليست نقابة بالمعنى التقليدي، لكنها مؤسسة هدفها الأول، كما يعترف لوكمان، تعزيز استيطان العمال اليهود في فلسطين، وإقامة كومونولث يهودي. ويبين بوضوح تام أن الهستدروت لم تغفل يوماً عن هدفها الأول، وهو تشغيل العمال اليهود في سكة الحديد، كجزء من الحملة الأوسع لـ "احتلال العمل" وتحقيق "العمل العبري". فضلاً عن ذلك، تطابقت أنشطة منظّمي العمل اليهودي مع أنشطة الاستخبارات. فلم يكن الناشطون البارزون في مجال العمالة اليهودية وكلاء استخبارات فحسب (مثل رؤوفين زسلاني/شيلواح)، بل إن منظّمي العمالة اليهودية

والعربية، على السواء، كانوا يزودون .

بانتظام . الدائرة السياسية للوكالة اليهودية معلومات عن الأوضاع العربية . ومن الأهداف الأخرى لقادة العمالة اليهودية أملهم بأن تعزل جهودهم العمال العرب عن التأثيرات السلبية للقوميين العرب الناشطين سعياً لتعبئة أولئك العمال ضد الصهيونية .

وليس من الواضح، أبداً، ما إذا كان لوكمان يعتبر هؤلاء العمال طليعة تشكيل اجتماعي ذي وعي طبقي، يحمل في ثناياه وعداً بمستقبل أكثر سلاماً لفلسطين . لكنه عنيد في الدفاع عنهم ضد الاتهامات الموجهة إليهم بـ "الجهل والتلاعب، أو العيوب الفردية، أو التواطؤ"، لأن القيام بغير ذلك يعني "التبني غير النقدي للغة القومية وطرقها في رؤية العالم" (ص ٣٦٦) . إلا أنه عند مفصل آخر يكتب عن "سذاجتهم السياسية"، وأنهم كانوا تحت الانطباع المغلوط فيه بأن الانضمام إلى منظمة يديرها اليهود يؤهلهم تلقائياً للحصول على عمل في مؤسسات يملكها اليهود، وبأنه ليس لدى صهيوني الجناح اليساري أزمة ضمير في خداع أو تضليل العمال العرب، بإخفاء التزامهم تجاه الصهيونية . ويصف، في الوقت نفسه، العمال العرب المعنيين بأنهم غير قادرين على متابعة المناقشات في الاجتماعات التي ينظمها مرشدوهم اليهود، لعدم معرفتهم باللغة العبرية، ولجهلهم بالفوارق الأيديولوجية بين أحزاب اليميشوف، ولنقص حذقهم السياسي وخبرتهم قياساً بنظرائهم اليهود .

ربما تكون مساهمة لوكمان أكثر أهمية في إبراز مواصفات الصهيونية، وفي بيان كيفية ومواقع اختلافها عن النموذج التقليدي للاستيطان الاستعماري . ويدعم وجهة نظره هذه وصفه لأحداث ١٩٤٨ بأنها "حرب أهلية مريرة ودموية" (ص ٣٥٢) . وكذلك اعتقاده أن قبول بن . غوريون توصيات لجنة بيل سنة ١٩٣٧ استند إلى الاستعداد للقبول بدولة يهودية صغيرة، لأن "هذا يوفر ملاذاً لليهود الأوروبيين" (ص ٢٥٦) . (يبين توم سيغف في كتابه "المليون السابع" *The Seventh Million* أن إنقاذ اليهود الأوروبيين لم يكن قط بنداً في جدول الأعمال السياسي لبن . غوريون) . وعلى الرغم من موقف لوكمان الناقد للتشكيلات القومية الضيقة، فإنه ذكر في نصه إشارات كثيرة إلى وجود عمال مصريين وسوريين في فلسطين، لكن ليس باعتبارهم جزءاً من القوى العاملة الفلسطينية، التي يفترض هو أنها مكونة بصورة طبيعية من العرب واليهود . وفي إشارته إلى العمال القادمين من حوران بحثاً عن عمل في فلسطين في أواخر العشرينات، يكتب لوكمان من دون سخرية: "الكثيرون لم يكونوا من فلسطين، وإنما من منطقة حوران في سورية الخاضعة للحكم الفرنسي!"

ويظهر لوكمان مطوّلاً كيف يعكس الخطاب الصهيوني العمالي أصداء موضوعات الخطاب الاستعماري عامة، من إنكار وجود قوة عقلانية، إلى عزو المشاعر والأعمال القومية المناهضة للاستعمار إلى التأثير السلبي لقلّة من العاملين المبتدئين الذين يخدمون أنفسهم. وما تميّزت به الصهيونية العمالية هو في حقيقة كون هذا الخطاب مصوغاً بلغة الاشتراكية، والصراع الطبقي، وتضامن الطبقة العاملة، ونظرة الصهيونية العمالية إلى ذاتها كمشروع اشتراكي للطبقة العاملة، وأحد مكونات الحركة العمالية الدولية. وكان نتيجة ذلك، بالتحديد، إسناد دور مهم إلى العمّال العرب. ووفقاً لقراءة لوكمان، فإن الهستدروت لم تتخلّ سوى في العشرينات عن الاعتقاد أن نجاح المشروع الصهيوني العمالي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بتضامن الطبقة العاملة العربية. اليهودية. ويبدو لوكمان غير قادر على رؤية التناقض بين هذا القول وبين إصراره السابق على دور النظام الاستعماري في المساهمة في نجاح المشروع الصهيوني، إذ كتب: "لم يكن من الممكن تصوّر نجاح استراتيجيا الصهيونية العمالية في غياب نظام استعماري متعاطف، يمكنه تقييد أكثرية السكان الأصليين، حتى يصبح اليبشوف قادراً على الوقوف بمفرده" (ص ٥٧). وحكمه النهائي هو أنه يمكن تحديد موقع معظم مواصفات الصهيونية في الطريقة التي تتيح التداخل الفريد في إطار فريد بين عناصر مشروع قومي، ومشروع استيطاني استعماري، ومشروع اشتراكي أو مشروع للطبقة العاملة. وهذا مشروع مثير للاهتمام حقاً. وقد تكون الفائدة أكبر بإظهار السياسات التي اختارت الصهيونية العمالية اعتمادها في حلّ النزاع الناشئ بين مشاريعها القومية ومشاريعها العمالية، وإظهار ما إذا كان السجل التاريخي يبرر الاعتقاد الذي تمسك به قادة الصهيونية العمالية، وهو. تحديداً. أن الهدف من الاشتراكية في ظروف تاريخية معيّنة، لا يمكن تحقيقه إلاّ بإعطاء أولوية للمصالح القومية على التضامن الطبقي؛ وما إذا كان مشروع استعماري استيطاني، أيّاً تكن مواصفاته، قادراً حقاً على إقامة القدس الجديدة. وهذا من شأنه أن يقطع شوطاً طويلاً نحو تحقيق الهدف الذي أعلنه لوكمان بشأن "إضعاف القبضة المهيمنة للأساطير القومية.. وإيجاد.. طرق جديدة لتصوّر المستقبل" (ص ٣٧٣).

وفي كتابه الجديد عن الهوية الفلسطينية، يعدّد رشيد الخالدي المشكلات المتعددة التي يواجهها أولئك الذين يحاولون رواية تاريخ السكان العرب الأصليين في فلسطين قبل سنة ١٩٤٨ وبعدها. وهو يرى أنه على الرغم من كون الكثير من هذه المشكلات لا يقتصر على فلسطين وحدها، فإن القضية الفلسطينية أكثر تعقيداً في التضافر الشديد خلال القرن

الماضي.. بين الرواية الفلسطينية وإحدى أكثر الروايات فعالية في الوجود، وهي رواية إسرائيل والشعب اليهودي." ومن المؤسف أن كتاب لوكمان يثبت استمرار صلاحية هذا التأكيد. ■

مجلة الدراسات الفلسطينية، جميع حقوق النشر وإعادة التوزيع محفوظة لمجلة الدراسات الفلسطينية، ولا يمكن نشرها أو توزيعها إلكترونياً إلا بإذن من رئيس تحرير المجلة وذلك عبر الكتابة إلى العنوان البريدي التالي: [majallat@palestine-studies.org](mailto:majallat@palestine-studies.org)  
يمكن تحميل هذه المقالة أو طبعها للاستخدام الفردي وعند الاستخدام يرجى ذكر المصدر:  
<http://www.palestine-studies.org/ar/mdf>